الفصل الثاني والعشرون

علـــو الهمـــة

علـو الهمة روح تسري في القلب فتثير حماسـه، وتؤجج نشـاطه، وتحـرك عزيمته، وتدفعه دفعًا لطلب المعالي والوصول إلى الفضائل، إنها سبيل السمو وسببه، وقاعدة العزة والرفعـة، إنها توقان النفس إلى المطالب العاليـة والغايات النبيلة؛ الهمة العالية إذا ولجت قلبًا أزعجته ودفعته إلى القمم وجرأته على الأهوال، وشـجعته على الأسـفار والارتحال؛ فيمضي في سـبيله جاعـلًا غايته وطُلبته نصب عينيه، لا يثنيه كيـد، ولا يضعفه مكر، ولا يصـده عـداء ولا تفتنه دنيا لأن همته أعلى وقلبه موصـول بالرب الأعلى، وصاحب الهمة العالية عذابه عذب، وعلقمه شـهد، وسـهاده سعادة، وألمه أمل، وروحه إلى الخير وثَّابة، والرجل بهمته لا بماله، بعزيمته وعمله لا بلفظه وكلامه.

معنى علو الهمة

علـو الهمة: وثبة النفس وتوجه القلب بجميع قواه إلى جانب الحق لحصول الكمال يقـول الشـيخ محمد الخضر حسـين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريفه لعلو الهمة وعظمها: هو اسـتصغار مادون النهاية من معالي الأمور، فعظيم الهمة يسـتخف بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور، ولا تهدأ نفسـه إلا حين يضع نفسـه في أسـمى منزلـة وأقصى غاية[١]، يقـول ابـن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: علو الهمة أن لا تقـف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيءٍ سـواه، ولا تـرضى بغـيره بدلًا منـه، ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس بـه، والفرح والسرور والابتهاج به بشيءٍ من الحظوظ الخسيسة الفانية[٢].

---

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٦) ط دار الاعتصام.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧).

أي الهمم همتك؟

كل من كان فيه نَفَس يتردد فإن فيه همة وإرادة، ولكل واحد من بني آدم مراد يقصده وغاية يسعى إليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ٤]، أي إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتًا كثيرًا وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال(١)، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها**»(٢)، إن الناس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا وكبيرًا في همهم وهمومهم ومقاصدهم وغاياتهم، فمن الناس من يكون كل مطلبه من الحياة تمتع بطعام أو شراب أوثياب أو أثاث، قيل لطرفة بن العبد، -وهو شاعر جاهلي وأحد أصحاب المعلَّقات وهي أجود الشعر العربي-: ما أطيب عيش الدنيا؟ فقال: مطعم شَهِيٌّ وملبس دَفِيٌّ ومركب وَطِيٌّ.

وهذا أبو نواس يبين حقيقة همته الخسيسة المحصورة في شهوات النفس وملذاتها فيقول:

إنما العيش سماع ... ومدام ونـدام
فإذا فاتك هذا ... فعلى العيش السلام

وهذا ثالث يبين أن ملاحقة النساء ومغازلتهن أرغب عنده من الجهاد في سبيل الله، إنه منكوس عن الغايات الكريمة الفاضلة، منتكس في حضيض الشهوات، منغمس فيها وقد أعمته وأصمَّته عن بذل الروح لله ومجاهدة أعداء الله رغبة في ثواب الله جَلَّ جَلَالُهُ، إنه الشاعر جميل بن معمر الذي عُرِفَ في التاريخ بجميل بثينة، فما أخسها من نسبة وما أسوأه من لقب! يقول لمن أمره بالجهاد في سبيل الله:

---

(١) «تفسير السعدي» ص [١٠٩٤].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٢٣].

obeikandl.com

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهادٍ غيرهن أريدُ
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

ومن الناس من حصر همته وقصرها في منصب يناله، أو مكانة رفيعة بين الناس في الدنيا حتى لو كلفه ذلك الوقوع في الحرام، والغرق في الآثام، وقد يقتل، وقد يمكر، وقد يخون، وقد يكذب، حتى يصل إلى بغيته، إنه لا يعنيه حرام أو حلال وإنما كل الذي يعنيه كيف أصل إلى ما أريد وبأي وسيلة، وكم من الناس من كان حاله كذلك حتى إذا وصل إلى مراده بغته موت فلقي الله، أومُكر به فعزل عن مكانه، أو ألمَّ به مرض فحبسه في فراشه، أو بقي في منصبه لكن عُذِّبَ به وصار بلاءً عليه.

وقد يكون سعي أحد الناس في أمور يُعدُّ طالبها سامي الهمة عالي القصد لكنها في حقيقة أمرها دنيئة لتعلقها بدنيا وقليلة لإرادة العاجلة بها وهذا كحال امرئ القيس الذي عاش نصف عمره في سُكْر وعربدة، وما أفاق من سكره حتى ذهب ملك أبيه فخرج ليطلبه فما حَصَّله، وقد أضاع نصف عمره في السُّكْرِ، وأضاع نصف عمره الآخر في طلب هذا الملك الضائع؛ فمات وقد ضاع عمره كله، يقول حينما خرج إلى قيصر الروم ليستعين به في إعادة ملكه:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

أما المؤمنون فهمتهم أعلى، وغايتهم أسمى، ومقصدهم أكمل، إنهم يرون ببصائرهم فناء هذه الدنيا وزوالها وذهاب كل ما فيها من نعيم وملك ورياسة وشهوات وأن النعيم الحقيقي المراد هو نعيم الجنة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠]، قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، ولذلك فإن المؤمنين الموقنين يبذلون النفس والنفيس لكي يصلوا إلى رضوان الله وجنته وإنما تكون

قيمة المرء ما يطلبه وإنما ينبل بقدر همته وسمو غايته وقصده، إنهم يبذلون ويتعبون ويعملون من أجل الوصول إلى تلك الغاية السامية.

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا

وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابًا

نعم، إن المكارم منوطة بالمكاره، وإن المصالح والخيرات والكمالات لا تنال إلا بحظ من المشقة ولا يُعْبَرُ إليها إلا على جسر من التعب والنَّصَب والصبر والكفاح.

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتَّالُ

وقيل:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها ... تنال إلا على جسر من التعب

الترغيب في علو الهمة من الكتاب والسنة

لقد أمر الله عبادة المؤمنين بالمسارعة إلى الخيرات والمسابقة إلى رفعة الدرجات والتنافس فيما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحَدِيد: ٢١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٣]، وشنع عَزَّوَجَلَّ على أولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ويجعلونها أكبر همهم وغاية علمهم باعتبار أن هذا الإيثار من أسوأ مظاهر خسة الهمة، وبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن هذا الركون إلى الدنيا تَسفُّل وانحطاط ونزول يترفع عنه المؤمن، فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التَّوْبَة: ٣٨]، ولقد ذم الله عَزَّوَجَلَّ أصحاب الهمم الدنيئة الخسيسة الذين رضوا بالفاني عن الباقي، واستبدلوا بالبعير بعرًا، وبالثريا ثرىً، وبالرحيق حريقًا، قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ

ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، وذم الله عَزَّوَجَلَّ المنافقين المتخلفين عن الجهاد لسقوط همتهم وقناعتهم بالدون، فقال تعالى في شأنهم: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]، وكثير من الناس في عصرنا يرضى بأن يكون مع الخوالف، يرضى أن يكون مع الكُسالى، يرضى أن يكون مع العصاة، ومنهم من لا تتطلع همته إلى أفق الطاعة السامي، ولا تتشوق نفسه إلى التلذذ بخدمة الحق والسعي في نشره والدعوة إليه، لماذا ترضى لنفسك أن تكون صاحب همة خسيسة تتهارج على الدنيا وتتصارع لتحصيلها زاهدًا في الآخرة معرضًا عن الحق وأهله؟! لماذا سيطرت الشهوات واللذات على عقلك؟! لماذا أعماك هواك؟! لماذا آثرت الراحة العاجلة على الاستعداد للآخرة؟! إن كثيرًا من الناس في عصرنا لسان حاله: أحيني اليوم وأمتني غدًا، عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة.

إذا تغديتُ وطابت نفسي فليس في الحي غلامٌ مثلي

فنعوذ بالله من خساسة الهمم، ودناءة العزائم، وقصور الفهم، وعمى البصيرة.

ولقد ربَّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته على هذا المعنى ودعاهم إليه وأمرهم به ومن الأحاديث الدالة على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**إن الله تعالى يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها**»(٢).

يقول المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٩٥)، في شرح معالي الأمور: وهي الأخلاق الشرعية والخصال الدينية لا الأمور الدنيوية فإن العلو فيها نزول.

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٦٤].

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢١٠) برقم [٢٩٤٠]، وصححه الألباني في «الصحيحة» [١٦٢٧].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة**»(١).

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لا ستهموا عليه، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا**»(٢)، هذه النصوص القرآنية والنبوية تدفع المسلم دفعًا إلى علو الهمة المسابقة إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ وقوة العزيمة في العمل بالحق والدعوة إليه.

صور من علو همة الصحابة

إنهم صحابة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي تخرجوا من مدرسة النبوة ونهلوا من معين الرسالة، فكانوا جيلًا عظيمًا فريدًا لن تعرف له الدنيا مثيلًا ولا نظيرًا إذ إن عظمتهم منبثقة من عظمة من رباهم، ولن يوجد في الأرض جيل مثلهم إلا إذا وُجد مثل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا لا ولن يكون، إن التاريخ قد وقف مندهشًا وهو يسطر عبر صفحاته تلك التضحيات الضحمة والمواقف العظيمة التي جاء بها الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإن كان إبراز هذا المعنى يحتاج تتبعًا لمشاهدهم ومواقفهم، إلا أننا نشير هنا إشارة عاجلة إلى علو هممهم وتسابقهم إلى رضوان ربهم جَلَّ جَلَالُهُ.

ففي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية رجلًا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها قال: فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يرجون أن يعطاها فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه قال: «**فأرسلوا إليه**» فأُتِي به، فبصق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في

(١) رواه البخاري برقم [٢٧٩٠].

(٢) رواه البخاري برقم [٢٦٨٩]، ومسلم برقم [٤٣٧].

عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «**انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»(١)، تأمل في هذا الحديث وانظر كيف بات الصحابة يتحدثون من الذي سيعطى تلك الكرامة، ثم كيف غدوا على رسول الله ﷺ ونفوسهم متطلعة إليها وكلهم يرجوا أن يعطاها.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال: «**وما ذاك؟**» فقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة**»، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»(٢)، إن هؤلاء الفقراء من الصحابة لا يريدون أن يسبقهم أحد إلى ربهم، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ لعلهم يجدون عملًا يوصلهم إلى الدرجات العلى، وهذا من علو همتهم رضي الله عنهم.

وخذ إليك هذا النبأ العجيب لهذا الصحابي الصادق الذي سَمَتْ روحه واستعلت فوق رغبات النفس، إنه ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه، كان شابًا فقيرًا عزبًا لا بيت له ولا مال له ولا وظيفة له ولا زوجة له، ومع كل ذلك حينما فتحت أمامه الأبواب لم يكن له رغبة سوى مرافقة النبي محمد ﷺ في الجنة، ويا لها من همة ما أعلاها،

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٧٠١]، ومسلم برقم [٢٤٠٦].

(٢) رواه البخاري برقم [٨٤٣]، ومسلم برقم [٥٩٥].

إنه لم يسأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالًا وفيرًا أو بيتًا فارهًا أو متعة دنيوية ذاهبة زائلة، بل سأله أن يدعوا له أن يكون رفيقًا له في الجنة، فعن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت أبيت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآتيه بوضوئه وحاجته فقال: «**سلني**» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة فقال: «**أو غير ذلك؟**» قلت: هو ذاك قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[(١)].

وانظر كيف يتسابق الخيِّران أبو بكر وعمر في عمل الصالحات ويتنافسان فيها، روى الإمام أحمد في المسند بسند صحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل المسجد وهو بين أبي بكر وعمر، وإذا ابن مسعود يصلي، وإذا هو يقرأ النساء فانتهى إلى رأس المائة فجعل ابن مسعود يدعو وهو قائم يصلي فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسأل تعطه، اسأل تعطه**» ثم قال: «**من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد**» فلما أصبح غدا إليه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليبشره وقال له: ما سألت البارحة؟ قال: قلت: اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة محمد في أعلى جنة الخلد، ثم جاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقيل له: إن أبا بكر قد سبقك، قال: يرحم الله أبا بكر ما سبقته إلى خير قط إلا سبقني إليه»[(٢)].

هذا ابن مسعود يصلي بالليل ويطيل الصلاة حتى قرأ مائة آية وهو يرتل تلاوته ويجملها ويحسنها، ويدعوا دعاءً يدل على همته العالية، وتأمل كيف يقول: ومرافقة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعلى جنة الخلد، وتأمل كيف يتسابق الصديق والفاروق إلى بشارة ابن مسعود وإخباره بتأمين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دعائه.

وهذا صحابي آخر يحدوه الشوق إلى بيت ربه، ويسير إلى المسجد ويأبى أن يركب دابة لأنه يرغب أن تسجل له تلك الخطوات ويجازى بها عند ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فيبشره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد جمع ذلك له، والحديث رواه مسلم من حديث أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رجلٌ لا أعلم رجلًا أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه

---

(١) رواه مسلم برقم [٤٨٩].

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٥٤)، وصححه الشيخ مصطفى العدوي في فضائل الصحابة [٢٣٤].

صلاة، فقيل له، أو فقلت له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء فقال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد جمع الله لك ذلك كله**»(١).

وذاك صحابي آخر لا يلتفت إلا إلى طلب الشهادة وتحصيلها، إنه لا يعنيه مال ولا تشغله غنيمة، إنما كان كل شغله وكل رغبته أن يفوز بثواب الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، لقد تناءت نفسه عن الدنيا وتشوقت إلى نعيم الآخرة الكامل المقيم الخالد، روى النسائي عن شداد بن الهاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيًا فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذه فجاء به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما هذا؟ قال «**قسمت لك**» قال: ما على هذا اتبعتك ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا -وأشار إلى حلقه بسهم- فأموت فأدخل الجنة، فقال: «**إن تصدق الله يصدقك**»، فلبثوا قليلًا ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل، قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم قال: «**صدق الله فصدقه**»، ثم كفنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جبة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فقتل شهيدًا أنا شهيد على ذلك**»(٢).

هكذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا تلوح لهم منقبة أخروية ولا فضيلة دينية إلا تنافسوا فيها وسارعوا إليها، وحرصوا عليها، واستشرفوا لها فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

---

(١) رواه مسلم برقم [٦٦٢].

(٢) رواه النسائي برقم [١٩٥٣]، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» برقم [١٨٤٥].

obeikandl.com

مجالات علو الهمة[١]

علو الهمة يسمو بصاحبه فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور، فهو الذي ينهض بالضعيف الذي يُضطهد أو يُزدرى فإذا هو عزيز كريم، وهو الذي يرفع القوم من سقوط ويبدلهم بالخمول نباهة وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية، إنه يحمي الأمة من أن تتملق لخصمها أو تذل له، إنه يورد صاحبه موارد التعب والعناء ولكن هذا التعب في الوصول إلى الغايات الكريمة المحمودة يشبه الدواء المر فيسيغه المريض كما يسيغ الشراب عذبًا باردًا[٢]، وقد يستلذ به ويألفه لعلمه بما يعقبه من شفاء وآثار حميدة، وإن مما يدفع النفس إلى علو الهمة ويحثها عليه ويبعثه فيها مذاكرة أحوال أولئك الموفقين الذين جعل الله لهم منه نصيبًا وافرًا وكانوا فيه قدوة للمقتدين، ولعلو الهمة مجالات متعددة نذكر منها ما يلي:

أولًا - علو الهمة في طلب العلم:

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت أنا وجار لي من الأنصار -هو أوس بن خولي الأنصاري- في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك.

وهذه خطة محكمة من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حتى لا يفوته شيء من العلم ولا يغيب عنه شيء من هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحديثه، وهذا من الحرص الشديد على العلم الذي هو من أعظم أسباب النجاة والفوز بجنة الله تعالى.

---

(١) هذا الفصل مستفاد ومختصر من«علو الهمة» للدكتور/ المقدم و«صلاح الأمة في علو الهمة» للدكتور/ العفاني، حفظهما الله.مع بعض الإضافات اليسيرة.

(٢) «رسائل الإصلاح» بتصرف واختصار (٢/ ٨٨).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم اليوم كثير فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فيهم؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان يبلغني الحديث من الرجال فآتي بابه وهو قائلٌ، فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح عليَّ من التراب فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رآني قد اجتمع الناس حولي يسألونني فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني.

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، وكذلك ثبت عن أبي أيوب أنه رحل إلى عقبة بن نافع وهو في مصر ليروي عنه حديثًا، فقدم مصر ونزل عن راحلته ولم يحل رحلها فسمع منه الحديث وركب راحلته وقفل إلى المدينة راجعًا.

قال سعيد بن المسيب: كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين يقول: فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به قراطيس، فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح آخذه، فأكتب فيه فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمًا.

وهذا محمد بن سلام شيخ البخاري كان في حال الطلب جالسًا في مجلس الإملاء والشيخ يحدث ويملي، فانكسر قلمه فأمر أن ينادي: قلم بدينار فتطايرت إليه الأقلام.

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما أردت أن أطلب العلم قلت: يارب إنه لا بد لي من معيشة، ورأيت العلم يدرس فقلت: أفرغ نفسي لطلبه قال: وسألت ربي الكفاية، وعَزَمَ على طلب العلم حتى كفلت له والدته الإنفاق عليه.

قال ثعلبة: ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة ولا نحو خمسين سنة.

وذكر الذهبي عن ابن أبي حاتم قال: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة نهارنا ندور على الشيوخ وبالليل ننسخ ونقابل، فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا فقالوا: هو عليل، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا فلم تزل السمكة ثلاثة أيام وكادت أن تنتن فأكلناها نيئة لم نتفرغ نشويها ثم قال: لا يستطاع العلم براحة.

وهذا العلامة القرآني الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عنه تلميذه الشيخ عطية سالم: إنه كان يبيت في طلب العلم مفكرًا وباحثًا حتى يذلل الصعاب وقد طابق القول العمل، حدثني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: جئت للشيخ في قراءتي عليه فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت ولم يروِ لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس وإيضاح بعض الشكل وكان الوقت ظهرًا، فأخذت الكتب والمراجع فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي فعاودت حتى المغرب فلم أنته أيضًا، فأوقد لي خادمي أعوادًا من الحطب أقرأ على ضوئها كعادة الطلاب وواصلت المطالعة وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار، وقد فرغت من درسي وزال عني اللبس، ووجدت هذا الدرس كغيره في الوضوح والفهم فتركت المطالعة ونمت وأوصيت خادمي أن لا يوقظني لدرس في ذلك اليوم اكتفاء بما حصلت عليه.

جاء شعبة بن الحجاج إلى خالد الحذاء فقال: يا أبا منازل عندك حديث حدثني به، وكان خالد عليلًا فقال له: أنا وجع فقال: إنما هو واحد، فحدثه به فلما فرغ قال: مت إذا شئت.

وكان يحيى بن معين شديد الحرص على لقاء الشيوخ والسماع منهم خشية أن يفوتوه، قال عبد بن حميد: سألني يحيى بن معين عن هذا الحديث أول ما جلس إليَّ فقلت: حدثنا حماد بن سلمة فقال: لو كان من كتابك؟ فقمت لأخرج كتابي فقبض على ثوبي ثم قال: أمله عليَّ فإني أخاف أن لا ألقاك. فأمليته عليه ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه.

وعن نعيم بن حماد قال: قيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات إن شاء الله.

وعن ابن معاذ قال: سألت أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: مادام تحسن به الحياة .

ويقول الإمام ابن عقيل شيخ ابن الجوزي: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عمر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين.

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خلقي ... ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي

وإنما اعترى رأسي غير صبغته ... والشيب في الراس غير الشيب في الهمم

ثانيًا- علو الهمة في العبادة:

كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا فاتته صلاة الجماعة صام يومًا، وأحيا ليلةً، وأعتق رقبة.

وقيل لنافع: ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال: الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما.

واجتهد أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: لو أمسكت بنفسك، أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقل من ذلك قال: فلم يزل على ذلك حتى مات.

قال الحسن البصري: من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل.

وعن أحمد بن حرب قال: يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه والنار تسعى تحته كيف ينام بينهما؟

كان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت، رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك؟ تبكي الليل عامته لا تسكت؟ لعلك يا بني أصبت نفسًا، لعلك قتلت قتيلًا فيقول: يا أمه أنا أعلم بما صنعت نفسي.

وقال هشيم تلميذ منصور بن زاذان، كان لو قيل له: إن ملك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل.

وعن موسى بن إسماعيل قال: لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا قط صدقتكم، كان مشغولًا بنفسه إما أن يحدث وإما أن يقرأ، وإما أن يسبح، وإما أن يصلي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال.

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: يا ابنتاه، إن أباك يخاف البيات.

obeikandl.com

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلًا عندنا بالمحصب وكان له أهل وبنات وكان يقوم فيصلي ليلًا طويلًا، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرِّسون، أَكُلَّ هذا الليل ترقدون، أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون فيسمع من ها هنا باكٍ ومن ها هنا داعٍ، ومن ها هنا قارئ، ومن ها هنا متوضئ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السري.

وعن وكيع قال: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه أكثر من ستين سنة فما رأيته يقضي ركعة.

وعن أبي حيان عن أبيه قال: كان الربيع بن خثيم يقاد إلى الصلاة وبه الفالج -الشلل- فقيل له: قد رخص لك قال: إني أسمع حي على الصلاة، فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبوًا.

وعن حماد بن سلمة قال: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عَزَّوَجَلَّ فيها إلا وجدناه مطيعًا؛ إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئًا، أو عائدًا، أو مشيعًا لجنازة، أو قاعدًا في المسجد، قال: فكنا نرى أنه لا يحسن يعصي الله عَزَّوَجَلَّ.

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له الصَّفِّيُّ[1] لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة.

قال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة وكان من أحسن الناس صلاة.

سمع عامر بن عبد الله بن الزبير المؤذن وهو يجود بنفسه فقال: خذوا بيدي فقيل: إنك عليل، قال: أسمع داعي الله فلا أجيبه، فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب فركع ركعة ثم مات.

---

(١) نسبة إلى الصف.

عن حماد بن سلمة قال: كان ثابت البناني يقول: اللهم إن كنت أعطيت أحدًا الصلاة في قبره فأعطني الصلاة في قبري.

قال أبو إسحاق السبيعي: ذهبت مني الصلاة وضعفت وإني لأصلي، فما أقرأ وأنا قائم إلا البقرة وآل عمران.

قال العلاء بن سالم العيدي: كان منصور يصلي في سطحه، فلما مات قال غلامٌ لأمه: يا أمه، الجذع الذي كان في سطح آل فلان لا أراه؟ قالت: يا بني ليس جذعًا ذاك منصور قد مات. والمقصود منصور بن المعتمر.

قال علي بن الفضيل: رأيت الثوري ساجدًا فطفت سبعًا قبل أن يرفع رأسه.

ثالثًا- علو الهمة في الدعوة إلى الله:

كبير الهمة يحمل هم الأمة، ويفيض قلبه بالرحمة لأبناء أمته من حوله، يشفق على العصاة ويألم لمن ضيعوا فرائض الله، ويقشعر قلبه حينما يشاهد معصية يجاهر بها ويتحرك بين الناس بحكمة ورحمة، بحب وشفقة، بصدق وإخلاص، يهدي ضالًا، وينصح حائرًا، ويُعلِّم جاهلًا، ويأمر بالمعروف بمعروف، وينهى عن المنكر بغير منكر، أسعد ما يكون حينما يرى عاصيًا يتوب، أو غافلًا يعود إلى ربه، أو تائهًا يهتدي إلى الحق ويعمل به، إنه يصلح نفسه ابتداءً ثم تعلو همته لإصلاح من حوله، وهذا هو خير خلق الله، وصفوة الله من البشر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٣]، قال الحسن البصري بعد أن تلا هذه الآية: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته وعمل صالحًا في إجابته وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

قال عبد الكريم بن أبي أمية: لأن أرد رجلًا عن رأي سيئ أحب إليَّ من اعتكاف شهر.

وتصف فاطمة بنت عبد الملك زوجها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فتقول: كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه، وصل يومه بليليه.

وعن حزم بن أبي حزم قال: قال عمر بن عبد العزيز في كلام له: فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيرًا.

وقال أبو عثمان شيخ البخاري: ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تم وإلا قمت له بمالي، فإن تم وإلا استعنت عليه بالإخوان، فإن تم وإلا استعنت بالسلطان.

وكان الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجلس للمسائل، يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس، لا يسأله أحد من الناس فيرده كبرت حاجته أو صغرت.

عن جعفر بن سليمان قال: سمعت مالك بن دينار يقول: لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدتُ أعوانًا لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: يا أيها الناس النار، النار.

وعن إبراهيم بن الأشعث قال: كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي حتى لكأنه يُودِّع أصحابه ذاهبًا إلى الآخرة حتى يبلغ المقابر، فيجلس فكأنه بين الموتى جلس، من الحزن والبكاء حتى يقوم، ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها.

وعن شجاع بن الوليد قال: كنت أخرج مع سفيان الثوري فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا.

وكان أحمد الغزالي شقيق أبي حامد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: يدخل القرى والضياع ويعظ لأهل البوادي تقرُّبًا إلى الله.

يقول الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخلت أحد مساجد مدينة حلب فوجدت شابًا يصلي فقلت: سبحان الله إن هذا الشاب من أكثر الناس فسادًا، يشرب الخمر ويفعل الزنا ويأكل الربا وهو عاق لوالديه، وقد طرداه من البيت فما الذي جاء به إلى المسجد؟ فاقتربت منه وسألته: أنت فلان؟ قال: نعم قلت: الحمد لله على هدايتك أخبرني كيف هداك الله؟ قال: هدايتي كانت على يد شيخ وعظنا في مرقص، قلت مستغربًا: في مرقص؟! قال: نعم في مرقص قلت: كيف ذلك؟ قال: هذه هي القصة، فأخذ يرويها فقال: كان في حارتنا مسجد صغير يؤم الناس فيه شيخ كبير السن، وذات يوم التفت الشيخ إلى المصلين وقال لهم: أين الناس؟ ما بال أكثر الناس وخاصة الشباب لا يقربون المسجد ولا يعرفونه؟ فأجابه المصلون: إنهم في المراقص والملاهي، قال الشيخ: وما هي المراقص والملاهي؟ رد عليه أحد المصلين: المرقص صالة كبيرة فيها خشبة مرتفعة تصعد عليها الفتيات عاريات أو شبه عاريات يرقصن، والناس حولهن ينظرون إليهم، فقال الشيخ: والذين ينظرون إليهن من المسلمين؟ قالوا: نعم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله... هيا بنا إلى تلك المراقص لننصح الناس، قالوا له: يا شيخ أتريد أن تعظ الناس وتنصحهم في المرقص؟ قال: نعم، حاولوا أن يثنوه عن عزمه وأخبروه أنهم سيواجَهُون بالسخرية والاستهزاء، وسينالهم الأذى، فقال: وهل نحن خير من محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وأمسك الشيخ بيد أحد المصلين ليدله على المرقص، وعندما وصلوا إليه سألهم صاحب المرقص ماذا تريدون؟! قال الشيخ: نريد أن ننصح من في المرقص، تعجب صاحب المرقص، وأخذ يمعن النظر فيهم، ورفض السماح لهم، فأخذوا يساومونه ليأذن لهم، حتى دفعوا له مبلغًا من المال يعادل دخله اليومي، وافق صاحب المرقص، وطلب منهم أن يحضروا في الغد عند بدء العرض اليومي.

قال الشاب: فلما كان الغد كنت موجودًا في المرقص، بدأ الرقص من إحدى الفتيات، ولما انتهت أُسْدِلَ الستار، ثم فتح فإذا بشيخ وقور يجلس على كرسي فبدأ

بالبسملة وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بدأ في وعظ الناس الذين أخذتهم الدهشة وتملكهم العجب، فظنوا أن ما يرونه هو فقرة فكاهية فلما عرفوا أنهم أمام شيخ يعظهم أخذوا يسخرون منه، ويرفعون أصواتهم بالضحك والاستهزاء وهو لا يبالي بهم، واستمر في نصحه ووعظه، حتى قام أحد الحضور وأمرهم بالسكوت والإنصات حتى يسمعوا ما يقوله الشيخ، قال: فبدأ السكون والهدوء يخيم على أنحاء المرقص حتى أصبحنا لا نسمع إلا صوت الشيخ، فقال كلامًا ما سمعناه من قبل، تلا علينا آيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية، وقصصًا لتوبة بعض الصالحين، وكان مما قاله: أيها الناس، إنكم عشتم طويلًا وعصيتم الله كثيرًا، فأين ذهبت لذة المعصية؟ لقد ذهبت اللذة وبقيت الصحائف سوداء ستسألون عنها يوم القيامة وسيأتي يوم يهلك فيه كل شيء إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيها الناس، هل نظرتم إلى أعمالكم إلى أين ستؤدي بكم؟ إنكم لا تتحملون نار الدنيا وهي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم فكيف بنار جهنم؟ بادروا بالتوبة قبل فوات الأوان، قال: فبكى الناس جميعًا، وخرج الشيخ من المرقص، وخرج الجميع وراءه، وكانت توبتهم على يده حتى صاحب المرقص تاب وندم على ما كان منه.

يقول الدكتور المقدم حَفِظَهُ اللَّهُ: وأعرف أخًا يعيش في ألمانيا أحسبه والله حسيبه مجتهدًا في الدعوة إلى الله غاية الاجتهاد، حتى لا يكاد يذوق طعمًا للراحة، وقد استحوذت الدعوة على كل كيانه، حتى أرهق نفسه وشغل عن بيته وأهله وولده، فرأى إخوانه أن يمنح عطلة إجبارية، وذهبوا بصحبة أسرته إلى منتجع ناءٍ لا يعرفه فيه أحد ولا يعرف فيه أحدًا كي يهنأ ببعض الراحة، وواعدوه أن يعودوا لإرجاعه بعد أيام ولما رجعوا إليه وجدوه قد أَسَّسَ جمعية إسلامية في هذا المكان قوامها بعض العمال المغاربة وغيرهم ممن انقطعت صلتهم بالدين، ففتش عنهم في مظان وجودهم، ودعاهم إلى طاعة الله سبحانه، وأَلَّفَ بينهم، وأقاموا مسجدًا كان فيما بعد منطلقًا للدعوة إلى الله في تلك البلدة.

وذكـر غيره من أهل العلم أن أحد الدعاة الموفَّقين بينما هو يمر في بعض الميادين في ألمانيـا وجد لوحة قد كتب عليها: إنك لا تعرف شـيئًا عن كفـرات يوكوهاما، إذا أردت أن تعرف شـيئًا عنها اتصل بنا على هذا الهاتف، فأخذ منها فكرة، وكتب هو الآخر لوحة كبيرة فيها دعوة إلى الإسلام حيث كتب عليها: أنت لا تعرف شيئًا عن الإسلام إذا أردت أن تعرف شيئًا عن الإسلام، فاتصل بنا على هذا الهاتف، وكتب رقم هاتفه فانهالت عليه الاتصالات وكان ذلك سببًا في دخول كثير من الألمان في الإسلام.

إنه على قدر حبك للإسـلام وانتمائك إليه يكون حديثك عنه ودعوتك إليه، وعلى قـدر إيمانـك بالله يكون تحركك بين الناس بحكمة ورحمة يقول رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النَّعم»**[١].

أسباب علو الهمة

أولًا- طلب العلم بِجِدية والعمل به:

مـن أنفـع ما يفيـد المرء المسـلم في دينه ويعلي همتـه ويرفع من عزيمتـه طلب العلم ومجالسـة العلـماء الربانيـين والاسـتفادة من هديهـم وسـمتهم، إن العلم سـبيل البصيرة والفهم لحقيقـة الحياة وقيمة الأعمار، ويفتح للعبد أبواب العمل والتعبد، ويبصره بحيل إبليـس وتلبيسـه عليه، قـال ابن القيـم رَحِمَهُ اللَّهُ: العزيمة لقاح البصيرة، فـإذا اجتمعا؛ نال صاحبها خير الدنيا والآخرة، وبلغت به همته من العليا كل مكان[٢].

ذكر أن رجلًا خطب امرأة ذات منصب وجمال، فأبت لفقره وقلة حسبه، ففكر بأي الأمرين ينالها، أبالمال أم الحسب؟ فاختار الحسب، وطلب له العلم حتى أصبح ذا مكانة، فبعثت إليه المرأة تعرض نفسها فقال: لا أوثر على العلم شيئًا.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) «الفوائد» [٢٢٣] ط دار إحياء الكتب العربية.

obeikandl.com

ثانيًا- كثرة ذكر الموت والتفكر في الآخرة:

مما يبعث الهمة المقعدة، ويوقظ العزيمة الراقدة أن يتفكر المرء في وقت ينقطع عنه العمل وتنتهي فيه حياته، وإذا أكثر العبد من ذكر الموت كان ذلك دافعًا قويًا إلى عمل الصالحات، ومحاسبة النفس، وتجديد التوبة، والتجافي عن دار الغرور، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملئ فيه وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه، وأبكاني فراق الأحبة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأوزاعي يقول: أما بعد، فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير.

وعن عطاء قال: كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ويبكون ، وكان صالح المرِّي يقول: إن ذكر الموت إذا فارقني ساعة فسد عليَّ قلبي.

ثالثًا- الاجتهاد في حصر الذهن وتركيز الفكر في معالي الأمور:

ولنا في أئمة السلف والخلف أحسن الأسوة في ذلك قال الشافعي: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

كان الخليل بن أحمد يخرج من منزله فلا يشعر إلا وهو في الصحراء ولم يردها من شغله بالفكر.

وكان يدخل الداخل إلى أبي تمام وهو يعمل الشعر فلا يشعر به.

وكانت لابن سحنون سُرِّية فطلب منها ذات مرة أن تعدّ له طعامًا، وشغل بالتأليف والرد على المخالفين، وأحضرت الطعام وبعد طول انتظار أخذت تطعمه حتى أتى عليه وتمادى في عمله حتى الفجر، ثم سألها أن تحضر الطعام فأخبرته أنه أتى عليه دون أن يشعر.

وهذا التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي أفناه شغله بالعلم عن نفسه فقد قال مرة لغلامه: ناولني نعلي فقال: نعلك في رجلك.

وهذا الإمام مسلم بن الحجاج كان سبب موته حصر فكره في حديث قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح عن الإمام مسلم: كان لموته سبب غريب نشأ من غمرة فكرية علمية، وذكر عن أحمد بن سلمة رفيق مسلم في الرحلة أنه قال: عقد لأبي الحسين مسلم ابن الحجاج مجلس للمذاكرة فذكر له حديثًا لم يعرفه، فانصرف إلى منزله وأوقد السراج وقال لمن في الدار: لا يدخلن أحد منكم هذا البيت فقيل له: أهديت لنا سلة فيها تمر، فقال قدموها إليَّ، فقدموها إليه فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرة تمرة يمضغها فأصبح وقد فني التمر، ووجد الحديث، قال الحاكم زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مرض ومات.

وهذا شيخه محمد بن إسماعيل البخاري، قال عنه محمد بن يوسف البخاري: كنت معه بمنزله ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة.

رابعًا- المبادرة والمداومة والحرص على الأوقات:

كبير الهمة لا يستسلم للأمر الواقع، بل يبادئ ويبادر في أقسى الظروف حماية لهمته من أن تهمد، ووقاية لها من أن تضمر، واستثمارًا لكل فرصة متاحة، ومن أَخَّر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها.

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فلا تدري السكون متى يكون

وهذا يوسف الصديق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبادر إلى استثمار الفرصة فيغتنم سؤال السجينين عن رؤياهما؛ ليبث إليهما دعوة التوحيد من وراء الأسوار، قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

وأمـلى الإمـام السرخي كتاب (**المبسـوط**) نحو خمسـة عشر مجلدًا وهو في السـجن بـ«أوزجند»، كان محبوسًـا في الجب بسـبب كلمة نصح بها الخاقان وكان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب، وهو في الجب، وأصحابه في أعلى الجب، وقال عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، إملاءُ المحبوس عن الجمع والجماعات.

وقـال في آخـر شرح الإقـرار: انتهى شرح الإقرار، المشـتمل من المعـاني على ما هو من الأسرار، إملاء المحبوس في محبس الأشرار، وله كتاب في أصول الفقه وشرح السـير الكبير، أملاء وهو في الجب، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج فَأُطلِقَ فخرج في آخر عمره إلى فرغانة، فأنزله الأمير حسن بمنزله، ووصل إليه الطلبة فأكمل الإملاء.

وهذا شـيخ الإسـلام ابن تيمية يكتب فتاواه وهو سـجين ويرسلها إلى تلاميذه ولما أصدر السـلطان أمـرًا بإخراج ما عنده من الكتب والأقـلام والأوراق ظل يكتب فتاواه ورسائله بالفحم على جدار السجن.

وألف ابن الأثير كتبه الرائعة، كجامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث والأثر بسبب أنه مقعد، وكتب ابن القيم كتابه (**زاد المعاد**) وهو مسافر، وشرح القرطبي صحيح مسـلم وهو على ظهر السفينة، وذكر أحد الصالحين إنه قد حبس فحفظ في سجنه القرآن كله وقرأ أربعين مجلدًا.

خامسًا- صحبة الصالحين أولي الهمم العالية:

إن للبيئة والأصحاب تأثيرًا قويًا مباشرًا على همة المرء وسـلوكه وأخلاقه، قال ابن المبارك: إذا نظرت إلى الفضيل جُدِّد لي الحزن ومقتُّ نفسي.

وكان الإمام أحمد إذا بلغه عن شـخص صلاح أو زهد أو قيام بحق أو اتباع للأمر سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله، وحكى ابن القيم

بعض ما استفاده من ملاحظة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعم بل ضدها وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرَّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

وقد قيل:

أنت في الناس تقاس	**بالذي اخترت خليلا**
فاصحب الاخيار تعلو	**وتنل ذكرًا جميلا**

وبعد،،

أيها الإخوة، إن علو الهمة طريق القمة، ونهضة للأمة، ويقظة للضمائر والعقول، إنها وثبة إلى المعالي وتخلُّص من القيود والأغلال التي تعرقل المرء عن الوصول إلى المعالي وبلوغ الغايات الحميدة الكريمة، فأدم إيقاظ النفس وتنبيه الفؤاد إلى علو الهمة، وحرِّك عزيمتك إلى كل غاية نبيلة ولا تحتقر نفسك، بل سارع وبادر وتوكل على الله، وسله العون والتوفيق والسداد واستعذ به من العجز والكسل، وكن لربك كما يريد، يكن لك مثل ما تريد.

ob eikan ... com